ما وراء الصورة

تعددت الشاشات... والوجع واحد

نضال خيري ـ الأردن

زينب حاوي

أول من أمس، كانوا بضعة شبّان على جسر «الرينغ» يقطعون الطريق في الاتجاهين. شبان في العقدين الثاني والثالث، نزلوا للاحتجاج على رزمة الضرائب التي أذيعت عند الصباح، وأكدّها الوزراء المعنيون، على رأسها الضريبة على مكالمات «واتساب». نزل هؤلاء للاحتجاج أيضاً على تراخي اللبنانيين عن النزول. خال الإعلام والسلطة مجتمعين أن هؤلاء سرعان ما ستخمد صرخاتهم، ويعودون أدراجهم الى بيوتهم. لكن الذي حصل قلب التوقعات رأساً على عقب. أصرّ المحتجون مساءً على البقاء في الشارع، ونقل حركتهم من منطقة الى أخرى، وسط دعوة مباشرة وواضحة لبقية اللبنانيين الجالسين خلف شاشات هواتفهم إلى الالتحاق بهم. بعيد الساعة الثامنة من مساء أول من أمس، ولدى انتهاء غالبية نشرات الأخبار، بدأت حركة المعتصمين تتظهر على شاشات محدودة من ضمنها: «الجديد»، lbci وnbn، مع استكمال mtv برمجتها من دون أي التفات إلى ما يحصل في الشارع. أما otv، و«تلفزيون لبنان» و«المنار»، فقد واصلت على تجاهل الحدث، الى أن كبرت كرة الثلج، وازدادت الأعداد بشكل مهول، بخاصة بعد حادثة إطلاق مرافقي وزير التربية أكرم شهيب النار في الهواء ومحاولتهم ترهيب المعتصمين. لحظة حاسمة، استطاعت توليد المزيد من الشحن، والدفع بمزيد من اللبنانيين إلى النزول والمشاركة بكثافة. لعلّ صورة الشابة التي ركلت عنصراً أمنياً شاهراً سلاحه في وسط العاصمة اللبنانية، من دون خوف وبكل بأس وقوة، كانت أبرز مثال، على ما بات عليه الشارع اللبناني اليوم، من كسر لجدران الخوف، وحتى تحطيم تابوهات تخص الزعماء أو شخصيات سياسية.

هكذا، توزعت الاحتجاجات على المناطق اللبنانية، من الضاحية، والجنوب، والبقاع. نزل الناس الى الشارع، تشجعوا وكسروا الخوف، ودفعهم قهرهم إلى أن يمسكوا بأيادٍ أخرى. للمرة الأولى في لبنان، نكون أمام هذه المشهدية الفريدة المكوّنة من معتصمين ركلوا انتماءاتهم الحزبية والطائفية والمناطقية جانباً، ووحدتهم أوجاعهم وتراكم الأزمات الاقتصادية الواقعة على كاهلهم. هؤلاء ليسوا بمجموعة واحدة ولا يرأسهم قادة، ولا وجود لأي اتصال في ما بينهم، فقط نزلوا بعدما طفح الكيل وكفروا بالطبقة السياسية الحاكمة.

في المشهدية التلفزيونية أول من أمس، كان لافتاً المسار الذي أجبرت عليه القنوات المحلية، بعدما علت الصرخات في الشارع. قنوات قطعت برمجتها، ونزلت بمراسليها الى الميدان لنقل الحدث، كمحطة mtv، التي واكبت متأخرة قليلاً الحدث بعيد تكاثر الأعداد، وسقوط أي احتمال بأن تكون على شاكلة باقي التظاهرات التي شهدتها بيروت أخيراً، مع تسجيل لأداء مراسليها ومحاولتهم تضييع البوصلة، كإصرار جويس عقيقي مراراً، لدى استصراحها أي محتج، على سؤاله عن الجهة التي دفعته إلى النزول والاعتصام، أو كلامها صباحاً عن «نوعية المتظاهرين» الذين أتوا بالدراجات النارية، ويمكن أيضاً الإضاءة على ما وصف به آلان درغام (mtv) المتظاهرين بأنه يبدو عليهم «بأنهم مثقفون وخريجو جامعات» لدى مواكبته سيل المحتجين في شارع الحمرا.

> مراسلة mtv تحدثت عن «نوعية المتظاهرين» الذين أتوا بالدراجات النارية!

بعد أكثر من ساعة تقريباً على تحرك الشارع، فُتح هواء «المنار» التي واكبت إلى ساعات الفجر الأولى ما يحصل في الشارع، والتزم التلفزيون الرسمي التجاهل الكليّ لغليان الأرض، فيما كانت otv، تؤخر التغطية، الى حين اتخاذها قرار فتح الهواء، لكن، من دون وجود مراسليها على الأرض. فقد اكتفت بنقل مباشر عن باقي زميلاتها، تحت ذريعة أن فريقها قد يتعرّض للاعتداء من قبل المتظاهرين. otv كانت من بين أكثر القنوات التي تعرّضت للتهكّم. نقلت صوراً لمحطات أخرى، وفتحت الهواء لمجموعة ناشطين وسياسيين ليعلقوا على الحدث.

وأضحت اللقطة الأكثر تداولاً وسخرية، عندما أوقفت المحطة بث ما يجري على الأرض قرابة الساعة الثانية عشرة ليلاً، وبدأت بثّ حلقة معادة من برنامج الطبخ «تيتا لطيفة». استغل الناشطون هذه اللقطة، وسخروا منها كونها تأتي في لحظة يغلي فيها الشارع، فيما تركن بدورها الى تفضيل عرض الترفيه. وصباح أمس، سقطت ذريعة القناة البرتقالية، إذ شاهدنا مواكبتها للتظاهرات على الشاشة، ونزل مراسلوها الى الشوارع وأدلوا برسائل من هناك من دون تسجيل أي أذى لحق بهم.

مع التغطية التلفزيونية الحيّة المفتوحة ليل أول من أمس، حتى ساعات الفجر الأولى، احتل نقل وجع الناس المشهد، مع تسجيل لبعض الشواذات لدى تخصيص مساحات لافتة للسياسيين من قبل lbci، وبعدها mtv، في تكرار لسيناريوات سابقة في التعاطي مع أحداث مماثلة، والركون الى أصوات ليس مكانها على الشاشات بل في ميادين المساءلة.

ما يمكن الخروج به في هذه التغطيات، أنها كسرت حواجز الصمت والخوف لدى اللبنانيين بأطيافهم كافة، وحطمت أيضاً أجندات القنوات التي اضطرت صاغرة إلى النقل، تحت سوط المساءلة في حال تجاهل نبض الشارع. كذلك، كسرت قاعدة أن الكلمات البذيئة والشتائم يجب تجنّب نقلها على الهواء. فقد كان لافتاً، هذه المرة، عجز المراسلين/ات، عن التحكم في الأرض وفي وجع الناس، فخرجت استصراحات كثيرة، لم تتوان عن توجيه الشتيمة والعبارات المسيئة للطبقة السياسية. فقد بات هذا الأمر جائزاً وطريقاً لتحطيم سلّم الخوف في التعاطي مع الساسة. الوحدة الوطنية اللبنانية تجلّت من دون أي اتفاق مسبق في كل المناطق، والتي لم يشهد بعضها أي حركة مشابهة منذ الحرب. كل ما حصل أول من أمس أفرز مشهدية فرضت نفسها على الإعلام ورجال السلطة الذين فضّلوا النأي بأنفسهم عن غضب الشارع، وتجنّب حتى التصريحات الإعلامية خوفاً من توليد غضب إضافي يحل على رؤوسهم، بعدما مُزّقت صورهم وبات الهجوم عليهم بالأسماء أمراً معتاداً على الشاشات، بعدما كان من «المحرّمات».

الإعلام السعودي يصوّب على المقاومة

فيما اللبنانيون يتوحّدون للمرة الأولى يداً بيد في وجه الطبقة السياسية الحاكمة من كل الأطياف، وفي كل المناطق اللبنانية من دون استثناء، لم تجد «العربية» سبيلاً لتنفيذ أجندتها ضد «حزب الله» سوى تعمدها في كل تقرير، وحتى في تغطيتها الميدانية إلى إبراز عبارة «حزب الله» وتصوير الاحتجاجات على أنها تنطلق من تلك المنطقة، وتتركز فيها دون سواها في تضليل واضح للحدث.

هكذا، ركزت الشبكة السعودية، على التظاهرات التي حدثت في الضاحية وراحت مراسلتها في بيروت غنوة يتيم، تستصرح المحتجين من هناك. لتخرج بتقرير معنون «ماذا قال أحد المتظاهرين في الضاحية الجنوبية لبيروت لنصر الله؟». تقرير وجّه اللوم إلى أمين عام «حزب الله» السيد حسن نصر الله، على غياب المحاسبة للفاسدين. كذلك، في تقارير أخرى، متفرقة، أصرّت «العربية» على وصف «الضاحية» بـ «معقل حزب الله»، والتركيز على هذه البقعة التي شهدت احتجاجات شعبية أول من أمس.

وحّدت الحرائق الناس. شعروا بالخوف. تُرِكوا وحدهم ليواجهوا غضباً رهيباً. اكتشف الناس: الدولة فاشلة إذاً. تأخر الإعلام في الفهم. وباستثناء التغطية الاستثنائية لمراسلة تعاطفت مع الضحايا، تصرف على تنويعاته كما يتصرف اليائسون. انتهت الحرائق، بلا حساب، بلا أسئلة. لكن الناس فهموا أن الحرائق آتية. ما فعلوه خلال اليومين الماضيين ليس إجباراً للسُلطة على الاستماع إلى صوتهم بالقوة. بل إعلام الجميع: «نحن الإعلام»

الشعب قال كلمته، على الإعلام أن يتبع

أحمد محسن

الفرح والأمل وتوزيع السعادة ليست وظائف أحد. توزع الأدوار وتوزيعها قد يكونان ضمن مستويات متفاوتة للتعامل مع الكارثة. الكارثة التي سيصل إليها بلد تقود سياسته المصارف التي هو مدين لها، وهذا الخطاب ما زال غائباً عن ألسن محتلي الهواء على الشاشات. المشهد الإعلامي في غاية البساطة: لدى الناس ما يقولونه في الشارع. هل لدى الذين يخرجون على الشاشات ما يقولونه؟ حتى الآن، النفي إجابة عادية. كذلك، المشهد في غاية التعقيد. فالأمل مبالغ فيه. ليس ضرورياً في غير وقته، وليس هناك من أي حلّ للأزمة قبل الاعتراف بها، أو في الحالة الإعلامية اللبنانية تحديداً: عدم التخلي عن هذا الاعتراف. الاعتراف أهم من الأمل، وأكثر رجاحة بكثير. حتى الآن، ما يجمع المؤسسات الإعلامية بالتظاهرات والمتظاهرين، هو الاعتراف. استمرارهم في التحرك ضدّ الأزمة بمواكبة إعلامية، على أرضية لا تخلو من ذهول جميع الأطراف بأنفسهم. الناس صدّقت أنها تستطيع أن تفعل ما تريد فعله، أو على الأقل تقول ما تريد قوله، من دون طوائفها، والإعلام لوهلة أيضاً صدّق أنه يمكن أن يكون خلف الناس، وليس خلف الطبقة المهيمنة. تبدو الأمور مختلفة قليلة على الأرض. الإصرار الذي يبدو عليه المتظاهرون، متجمعين ومتماسكين في أحيائهم، لا يبدو دقيقاً في التلفزيون. قبل الكاميرات، لا يبدو هؤلاء متحمسين لتأكيد انتمائهم إلى الجوع وإلى الأزمة، قبل انتمائهم إلى أي حظيرة طائفية. ظهورهم على التلفزيون، في كثير من الأحيان، يجعل هذه المتلازمة ضرورية، أي نفيهم لأي صبغة طائفية مشبوهة عن اعتراضهم. في الليلتين الماضيتين، ورغم عدم وجود أي مظهر «طليعي» في التظاهرات، كان وعي المتظاهرين بالمحصلة، وفي محطات كثيرة، يتجاوز وعي المراسلين التلفزيونيين. مراسلو قناة «الجديد» الطيّبون، دخلوا في سجالات مع المتظاهرين على الطريقة اللبنانية، كما لو أنهم جزء من النقاش. مراسلو «أم تي في» حاولوا الإسهام في تحييد بعض الشخصيات. مراسلو «أو تي في» كانوا مستغرقين في مشاهدة الأحداث عبر شاشات أخرى، لأن «تيتا لطيفة» كانت تُعدّ طبقاً شهياً من الكفتة والبطاطا على شاشتهم. في جميع الحالات، اندفاع الإعلام على نحو متواتر، يشبه تواتر الناس أنفسهم إلى الطرقات، ويقود إلى مجموعة ملاحظات رئيسية.

أولاً، التفاوت الرهيب في الحِرفية بين العاملين في المؤسسة الإعلامية الواحدة. مثلاً، على «الجديد»، على نقيض من المناوشات الحامية بين بعض مراسلي «الجديد» المبتدئين مع الناس، النابعة من شعور فظيع بسُلطة منحهم الحق في الحديث، بدا مراسل «الجديد» في مار مخايل مرتاحاً مع نفسه، حاضراً وجاهزاً، كما لو أنه يعرف هؤلاء الناس. وإذا أردنا استخدام لغة أكثر علمية، يبدو أنه يعرف ما الذي يريده هؤلاء الناس، وكيف يريدون قوله، وإلى من يتوجهون بأقوالهم واعتراضهم.

وينسحب هذا على مراسلي «أم تي في»، في المناطق المتوزعة شرق العاصمة، حيث انتشروا كما ينتشر الجنود في «مواقع آمنة». هذه الملاحظات عن «التركيبة»، ستكتسب قيمة إضافية عندما يتضح أن مراسلة «أم تي في» لم تستطع تحمّل التكسير والفوضى في محيط وسط المدينة، وأسرفت في حديث – لم يسبقها إليه إلا مناصرو مارين لوبن – عن «تغيّر نوعية المتظاهرين». الحديث عن النوعيّة ليس غريباً في لبنان، وهذا «الفحص» السريع تمّ إجراؤه عادةً، وإعلانه من قبل سياسيين تشربوا «الصيغة» التي صار علكها وبصقها على الهواء أو تحت الهواء، بلا أي فائدة، خاصةً بعدما ثبتت لا مركزية الحراك، واستحالة تبعيته لأي جهة خارجية، على نقيض من مصالح المرتزقة والانتهازيين.

ثانياً، أصوات الناس كانت أعلى من المؤسسات الإعلامية، أو المؤسسات التي أدرجت نفسها في

> تحميل القنوات مسؤولية التصريحات العنصرية ليس عادلاً في بعض الحالات

هذا التصنيف، رغم أنها تشكّلت في الأساس كمؤسسات طائفية. هذه المؤسسات وجدت نفسها في اليومين الماضيين تتحرك داخل النظام وليس خارجه، لكنها شعرت لأول مرة بقيادة جديدة للنظام. لقد قاد المتظاهرون تظاهراتهم، وخرجوا بأنفسهم، على نحو محكم، إلى درجة صعّبت على الأبواق المعتادة «التشويش» على التظاهرات، وإضافة أبعاد مؤامراتية خيالية إليها. وهذه نقطة أساسية. لوقت طويل، حكمت علاقة هذه المؤسسات بالسُلطة، وحكمت علاقة اللبنانيين بإعلامهم. علاقة تقتصر على تبادل جرعات من الطائفية، ومن تمييع متواصل للأزمة. وفي الليلتين الماضيتين، كانت المؤسسات الإعلامية – وليس جميعها طبعاً على الدرجة ذاتها من العلاقة بالسُلطة القائمة – قد وجدت نفسها خلف سُلطة جديدة، لا تعرف التعامل معها، بحيث إن هؤلاء الناس لا مرجعية حزبية وطائفية محددة لهم. القول إن اللبنانيين الذين شاركوا في التظاهرات خرجوا من طائفيتهم إلى الأبد هو قول مبالغ فيه، وتعطّله التغطية الإعلامية نفسها. لقد وضعوا طائفيتهم جانباً، ما اضطر المؤسسات الإعلامية إلى أن تضع علاقتها بالطبقة المهيمنة المتذرعة بوصايتها على الطوائف جانباً. ودائماً، ينبغي التنبيه إلى أن التلفزيون، بالاستناد إلى مراجعة طويلة لبورديو، لا يمكنه إظهار الصورة كاملة، لأن إظهارها يعطّل جزءاً أساسياً من صورته.

ثالثاً، الإعلام معني بفتح الهواء للاعتراضات والمعترضين، لكنه معني أيضاً بالبحث عن أصوات داعمة للتظاهرات، وقادرة على رفع مستوى المطالب إلى درجة واقعية. الصرخات من الحناجر المتعبة هي الحقيقة، ولكن يجب أن يجد المتظاهرون في الإعلام المادة التي يبحثون عنها وهي موجودة، للرسو على مطالب من شأنها منع أركان السُلطة من التمييع. بين الطبقة الأوليغارشية التي فعلت ما فعلته ولم تشبع، وبين الطبقة المضادة، وجوه وأسئلة كثيرة. هذا ما لا تظهره وسائل الإعلام التلفزيونية. لأسباب عديدة، اكتفت هذه المحطات، على مدار اليومين الماضيين، بالذهول. انبهرت بالأصوات القوية، بخروج اللبنانيين أخيراً عن صمتهم. اكتشف الإعلام اللبناني خلال اليومين الماضيين أن «الأكثرية الصامتة» يمكنها أن تتحدث، وأن تصرخ، وأن تعلن عن نفسها كأكثرية، قابلة للاتساع أو للانحسار. اكتفت الوسائل الإعلامية بفتح الهواء، وإرسال مراسلين يتفاوتون في درجة الحرفية، وفي درجة الطائفية تبعاً للمؤسسات التي خرجوا منها. في المقابل، لم يظهر من يتحدث عن دور المصارف، وعن المخارج الممكنة. تعرّفت المؤسسات الإعلامية إلى نوعين من الوجوه وحسب؛ النوع الأول وهو الأكثر سطوعاً وحقاً بالمشهد، وهو الذي أجبر الجميع على الاستماع إليه. والنوع الثاني هو النقيض، أي الوزراء وأركان السُلطة. بسُلطته، استطاع الإعلام لوقت طويل تقديم الكثير من الأصوات الانتهازية على أنها من دعاة الإصلاح والمقاومة وما شاء الله من شعارات. حتى ليل أول من أمس، خسر الإعلام هذه السُلطة. الناس كفرت بكل شيء، والإعلام كان ينقل كفرها، محافظاً على خيط رفيع من العلاقة بالسُلطة تحت ذريعة واهية هي «المعايير المهنية»، ويعلن بصوت خافت: «لست بكافر».

رابعاً، هناك أشياء لا يمكن تفاديها في أحداث جارفة. تحميل الإعلام مسؤولية التصريحات العنصرية هنا وهناك ليس عادلاً في بعض الحالات، وفي حالات أخرى قد يكون ضرورياً. المسألة شائكة ولا يمكن توقع محاضرات في الدفاع عن المجتمع بين جحافل المتظاهرين الجائعين. العمل على نبذ هذه الأفكار متأخر، والإعلام لعب دوراً سلبياً يشبه دور السُلطة التي أوهمت الناس بوجود مشكلة مع اللاجئين. على الإعلام أن يستقيل من دوره في فضح هذا الوهم، إضافة إلى الأوهام الأخرى، التي رسّخها النظام لوقت طويل، مثل مديح الجيش والعسكر، الذي لا يدل إلا على وجود خوف عميق ما زال كامناً في مكان ما في نفوس المتظاهرين. الأمل لا يكفي، الاعتراف هو أول الطريق، والمجد يبقى دائماً للذي قال لا.

(رامي قانصوه)